

إمارة ميافارقين الأيوبية صفحات من تاريخ الجهاد الإسلامي ضد الغزو المغولي

د. علاء محمود خليل قداوي (*)

كان المشرق العربي والإسلامي في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يموج بالصراعات السياسية التي أضعفت كثيرا من إمكانياته العسكرية أمام أعداء المسلمين، فالمشرق الإسلامي كان منشغلا بالصراع القائم بين الخوارزميين والدولة الغورية والإسماعيلية، وكانت الخلافة العباسية طرفا فيها. أما المشرق العربي، فالخلافة العباسية انحصرت سلطتها الفعلية في حدود إقليم العراق العربي خوزستان، ولم تعد قادرة بسبب ضعفها على أن تبسط سلطانها على ما جاورها من أقاليم، على الرغم من محاولات الخليفة الناصر لدين الله (575 - 622هـ / 1179 - 1225م) النهوض بدولته والعمل على توسيعها. وإذا تركنا العراق نحو بلاد الشام ومصر في يد سلاطين الأيوبيين أعقاب صلاح الدين، وكان هؤلاء منقسمين على أنفسهم، تجرهم التحالفات مع الأراغقة في ديار بكر وإمارة بدر الدين لؤلؤ في الموصل وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى لصد محاولات عدائية من أحدهم أو للحصول على أسلاب جديدة، زد على هذا الانقسام أنهم كانوا منشغلين بالكفاح ضد الصليبيين.

(*) أستاذ مساعد - قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل.

وقد أسهم هذا التفكك في فتح الطريق أمام المغول الذين اندفعوا من موطنهم الأصلي: منغوليا الواقعة في أواسط آسيا بزعامة جنكيز خان وخلفائه ليغزوا بلاد المسلمين ويقضوا على الدولة الخوارزمية والإسماعيلية، وليوطدوا بعدها سلطانهم في إيران تمهيداً للقضاء على الدولة العربية الإسلامية ممثلة بالخلافة العباسية⁽¹⁾. ولم يتحرك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق (640 - 659هـ / 1242 - 1261م) لمواجهةهم وكان أكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتداراً - عندما أخذت غارات المغول لتتال مناطق نفوذ أبناء جلدته في إقليم ديار بكر ومنها إمارة ميفارقين الأيوبية التي سعى صاحبها الملك الكامل إلى تنبيهه الملك الناصر يوسف مخاطر هذه الغارات، داعياً إياه إلى اتخاذ موقف موحد للتصدي ومساعدة الخليفة العباسي المستعصم بالله في أثناء محاصرة هولاكو ببغداد أوائل سنة 656هـ / 1258م.

ولكن الناصر ظن أن ارتماؤه بأحضان المغول سيبقي على حياته، وسيكافئه هولاكو بتوسيع رقعة إمارته، ولكنه دفع ثمن أوهامه إذ في الوقت الذي سجل الملك الكامل صاحب ميفارقين موقفاً مشرفاً في جهاده ضد المغول، ووصفه بعض المؤرخين كأبي شامة بالشهيد، نجد أن الملك الناصر يوسف ذاق من المغول الذل والهوان بتبعيته لهم حتى مقتله على يد هولاكو سنة 659هـ / 1261م.

(1) لمزيد من التفاصيل عن أوضاع المشرق العربي والإسلامي وغارات المغول، انظر: الصياد، فؤاد عبدالمعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت 1980، ج1، ص 61 - 90، 249 - 255، 289 - 290.

وهذه الأحداث يمكن تتبعها من خلال المحاور الآتية:
 أولاً. إمارة ميفارقين الأيوبية وسعي المغول لإخضاعها.
 ثانياً. الملك الكامل يعلن الثورة على المغول.
 ثالثاً. احتلال ميفارقين ومقاومة أهلها.

أولاً: إمارة ميفارقين الأيوبية وسعي المغول لإخضاعها

ميفارقين أشهر مدينة في إقليم ديار بكر، من بلاد الجزيرة الفراتية، واسمها عند الروم "مدور صالا" ومعناها بالعربية مدينة الشهداء، ويعود تاريخ بنائها إلى عهد السيد المسيح عليه السلام، وقد توالى على حكمها البيزنطيون والفرس إلى أن فتحها العرب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد الذي كان يعمل تحت لواء فاتح الجزيرة الفراتية عياض ابن غنم على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽²⁾، وبقيت منذ ذلك التاريخ تحكم من قبل أمراء مسلمين. وكان نجم الدين بن قطب الدين الارتقي آخر حكامها قبل أن يستحوذ عليها الأيوبيون، إذ في سنة 581هـ/ 1185م ضم صلاح الدين الأيوبي مدينة ميفارقين لملكه⁽³⁾ بهدف تقوية جبهته الداخلية لمواجهة القوى الصليبية في بلاد الشام، وعين عليها ابن أخيه تقي الدين عمر وأعقبه على حكمها الملك الأشرف موسى بن العادل ثم الملك المظفر شهاب

(2) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1978، ج7، ق1، ص 260 - 265، 279 - 281.

(3) ابن الأثير، أبو الحسن ابن أبي الكرم الشيباني الجزري: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1978، ج9، ص 169.

الدين غازي (628 - 645هـ / 1230 - 1247م)، الذي وسع من إمارته لتشمل فضلا على ميفارقين مدينتي أمد وآرزون وقلعتي السناسنة واليمانية⁽⁴⁾، وفي عهده بدأ الخطر المغولي يلوح في الأفق على إمارته عندما بدأت غارات المغول تطل إقليم الجزيرة الفراتية الجنوبية منذ سنة 628هـ / 1230م⁽⁵⁾. ثم توالى غاراتهم على الإقليم في سنوات 633هـ / 1235م و 634هـ / 1236م⁽⁶⁾، وفي سنة 638هـ / 1240م أرسل اوكتاي خان المغول رسائل إلى ملوك الجزيرة الفراتية ومنهم الملك المظفر شهاب الدين غازي يطلب منه الدخول في طاعته وبأمره بهدم أسوار بلدته، فاعتذر الملك المظفر لرسول اوكتاي بقوله: (أما من جملة الملوك وبلدي حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر، فنوجه إليهم وما فعلوه فعلته)⁽⁷⁾. لم يقبل المغول بهذا الرد فشدوا سنة 641هـ / 1243م غارة مدمرة على مدينة أمد⁽⁸⁾

(4) ابن شداد: الأعلام، ج3، ق2، ص 452 - 459.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 384.

(6) سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الكن، 1952، م8، ج2، ص695. ابن تغري بردي، جمال الدين بن المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ج6، ص293.

(7) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، م8، ج2، ص733. المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ج1، ق2، ص307 - 308.

(8) ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، الطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص251 - 252. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، ط1، المطبعة الحسينية المصرية، ج3، ص171 - 172.

التابعة لميافارقين، كما شدوا في السنة اللاحقة غارة أخرى على مدينة ميافارقين، فهرب الملك المظفر منها، وترك نائبه فيها الذي تمكن من مصالحة المغول بمبلغ كبير من المال⁽⁹⁾. وفي سنة 650هـ/ 1252م شن المغول غارة على بلاد الجزيرة الفراتية، ومنها ميافارقين، وقتلوا أكثر من عشرين ألف شخص⁽¹⁰⁾، كما تعرضوا للقوافل التجارية في الإقليم⁽¹¹⁾.

دفعت هذه الهجمات المدمرة الملك الكامل الذي كان قد حل محل والده المتوفى الملك المظفر شهاب الدين غازي في إمارة ميافارقين سنة 645هـ/ 1247م على الموافقة على استدعاء منكوخان له أملا في رفع الأذى عن بلاده، ففي نهاية سنة 650هـ/ 1252م اجتمع كل من الملك الكامل والملك المظفر بن الملك السعيد الأرتقي صاحب ماردين مع منكوخان الذي سخر منهما عندما طالبهما بأن يتصارعا أمامه، وقال لهما عند وداعهما (ما بقيتم بعد هذا تجتمعون بي إلا من طلبته وأمركم عائد إلى هولاءكو)⁽¹²⁾.

كان منكوخان قد أعد خطة منذ سنة 649هـ/ 1251م لاحتلال العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام ومصر، وأسدد مهمة تنفيذها

(9) ابن شداد: الأعلام، ج3، ق2، ص 473.

(10) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، م8، ج2، ص787. ابن ابيك، أبو بكر بن عبدالله ادواه داري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: اولرخ هارمان، القاهرة، 1971م، ج7، ص22.

(11) المقرئ: السلوك، ج1، ق2، ص383 - 384.

(12) ابن شداد: الأعلام، ج3، ق2، ص474 - 475، 479 - 480.

لهولاكو⁽¹³⁾. ولهذا كان أمر قبول المغول لتبعية حكام الجزيرة ليس إلا بهدف الاستفادة من إمكانياتهم العسكرية لإسقاط الخلافة العباسية، ومن ثم الانقلاب عليهم واحتلال بلادهم، وهذا ما تنبه له الملك الكامل الأيوبي صاحب ميفارقين الذي رفض الانزلاق في مخطط المغول لاحتلال العراق وبلاد الشام، لا بل قاومهم وثار ضدهم، وهذا ما سنلاحظه في المبحث الآتي:

ثانياً: الملك الكامل يعلن الثورة على المغول

حين فرغ هولاكو من احتلال بغداد سنة (656هـ/ 1258م) شرع في تكملة ما رسمه له منكوخان من الاستيلاء على الجزيرة والشام، فعهد هولاكو للأمرء يشمسوط، وايلكادويان وسونتاى مهمة احتلال ميفارقين⁽¹⁴⁾.

كان صاحب ميفارقين الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي قد خلع الطاعة بعد عودته من زيارة منكوخان سنة (650هـ/ 1252م). إذ طرد نواب الخان، وقتل قسيسا يحمل إشارة مرور

(13) براون، ادوار جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي الى السعدي، ترجمة: إبراهيم أمين الشراي، مطبعة السعادة بمصر، 1954م، ج2، ص565 - 566، 575.
وعن تفاصيل هذه الخطة، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمداني: جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت، وفؤاد عبدالمعطي الصياد، دار إحياء الكتب، مصر، م2، ج1، ص236 - 237.
(14) المصدر نفسه، م2، ج1، ص306 - 319. ميرخواند، محمد حميد الدين: تاريخ روضة الصفا، طهران، 1339ش، م5، ص258.

مغولية⁽¹⁵⁾، ورفض طلبا لمنكوخان في المشاركة بعساكره لاحتلال بغداد، وامتنع عن هدم أسوار أمد وتسليم هذه المدينة لصاحب الروم بناء على أوامر هولاءكو⁽¹⁶⁾.

كانت هذه الإجراءات من جانب الكامل تمثل حدا فاصلا في علاقاته مع المغول، إذ كان يدرك فشل سياسة المداراة مع هؤلاء الذين لا يضمرون لأحد من أهل البلاد من عدااء بقدر ما يضمرونه للعرب. فأخذ يعد العدة للدفاع عن بلاده ويدعو ملوك المساميين إلى توحيد الجهود لغرض تشكيل قوة إسلامية تحول دون تحقيق أهداف المغول التوسعية في الأقاليم العربية، وفي محاولة منه لتحقيق ذلك قام بالاتصال شخصيا بالملك الناصر يوسف صاحب الشام، إذ قال له: (ان هؤلاء التتر لا تفيد معهم مداراة ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأناس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الأموال من سنة اثنتين وأربعين والى اليوم فما الذي أثمرت فيهم من خلوص المودة؟ فلا يختر مولانا بكلام بدر الدين ولا بكلام رسولك فانهما جعلاك خبزا ومعيشة. وأحذرك كل الحذر من رسولك فانه لا يناصرك ولا يختارك عليهم، وفرضه اخراج ملك من يدك، وأنا فقد علمت انني مقتول سواء كنت لهم أنفسهم عليهم، فاخترت بان أكون باذلا مهجتي في سبيل الله. وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد؟! والمصلحة

(15) ابن العبري: تاريخ الدول السرياني، نشر في مجلة المشرق اللبنانية، العدد 50، السنة 1956، ص 135.

Sanders, J, J; The History of the Mongol Conquests, London, p. 113.

(16) ابن شداد: الأعلام، ج3، ق2، ص484، 505. وذكر ميرخواند بأن الكامل كان بعد أن رفض المشاركة

مع هولاءكو لاحتلال بغداد قد قاد جيشه الى بغداد للوقوف الى جانب الخليفة ضد المغول، لكنه لم يشترك في

القتال لسقوط بغداد قبل وصوله إليها. روضة الصفا، م5، ص258.

خروج السلطان بعساكره لاتحاد المسلمين، وأنا بين يديه، فان أدركناه عليها فيها ونعمت، وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء، وان لم يدركه أخذناه بثأره⁽¹⁷⁾.

لم تحظ هذه الدعوة بموافقة الناصر يوسف بتأثير بعض أمرائه المتخاذلين، وفي محاولة من الناصر لتسوية موقف الكامل، عرض عليه أن يرسل معه رسولا إلى هولاء ليشفع له عنده فقال الكامل: (جئتك في أمر ديني تعوضني عنه بأمر دنيوي، ولو أردت هذا كنت أوجه منك عنده، فإني رأيت وجهه مرتين). فأجابته الناصر بعد أن تيقن بعزم الكامل على المقاومة بقوله: (متى نزلوا عليك أنفذت لك عسكريا تستنصر به عليهم). فرد الكامل عليه بقوله: (كل هذا لا ينفعني حينئذ، إذ لا وصول له الي...)⁽¹⁸⁾.

لم يحقق الكامل ما كان يصبوا إليه من الناصر. وفي أثناء عودته من الشام تواترت الأخبار إليه باقتراب المغول من ميفارقين، وكإجراء من الكامل لمواجهة المغول ذهب إلى أمد ليجرد منها قوة عسكرية تعزز الحماية لميفارقين، وخلال ذلك حدث للكامل ما لم يكن في الحساب، إذ تمرد عليه الأمير شرف الدين الأوى - أحد كبار قواده - لحقد كان في نفسه عليه، فقص هذا المغول بعد أن وعدهم بتسليم المدينة لهم⁽¹⁹⁾.

(17) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص485 - 486، وذكر هذه الرواية باختصار اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى: ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، 1954، م1، ص431.

(18) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص486. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص277.

(19) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص488.

نزلت طلائع عساكر المغول على ميفارقين في يوم الأربعاء الثاني عشر من ذي القعدة سنة (656هـ / 1258م) وبعث كهداى - أحد قادة المغول - رسولا منه إلى الملك الكامل يدعوه إلى الطاعة والخضوع والخروج إلى يشموط بهدية ومؤن⁽²⁰⁾. فأجابه الكامل (ينبغي لا يضرب الأمير في حديد بارد، ولا يتوقع الشيء المستحيل، إذ لا يوثق بوعدهم وانني لن انخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف ما دمت حيا..)⁽²¹⁾.

ولأجل تقوية عزائم جنده توجه الكامل إليهم داعيا إياهم على الاستبسال وعدم السماح للغزاة بأن تطأ أقدامهم أرضهم، وطمأنهم ببذل ما في خزائنه من غلات وأموال لصرفها عليهم، وانه لن يفعل ما قام به المستعصم من حجب الأموال عن جنده وكانت سببا لهلاكه⁽²²⁾.

وقبل وقوع القتال وصل وفد من الملك الناصر يوسف برئاسة عز الدين بن شداد بشأن مفاوضة يشموط لفك الحصار عن ميفارقين، وقد بذل ابن شداد جهودا مضيئة في التفاوض معه، انتهت بقبوله التوجه إلى ميفارقين بعد تهديده بالقتل، بصحبة أحد المغول لإقناع صاحبها بإعلان الطاعة لهولاكو، مقابل تعهدهم بعدم اشتراط خروج الكامل لمقابلة يشموط،

(20) المصدر نفسه، ج3، ق2، ص489.

(21) رشيد الدين: جامع التواريخ، م2، ج1، ص319.

(22) المصدر نفسه، م2، ج1، ص319 - 320. ميرخواند: روضة الصفا، م5، ص258.

مع فك الحصار والرحيل عن المدينة، متى ما يتم الاتفاق على الصلح⁽²³⁾.

توجه ابن شداد ومعه المغولي ازدمر بن بايجو إلى ميفارقين، فقابل علم الدين الأعسر والي المدينة، واتفق معه على الصلح لقاء دفع مبلغ ليشموط قدره (100) ألف درهم و (6000) آلاف نصفية مع (70) فرسا و (30) جملا و (30) بغلا، على أن يدفع بعضها وقت اللقاء والباقي عند رحيلهم من المدينة، كاد هذا الاتفاق أن يدخل حيز التنفيذ لولا تواطؤ بدر الدين لؤلؤ ومكاتبته للمغول يخبرهم فيها بضعف القوة العسكرية للملك الناصر يوسف أمام اتفاق أمراء الصالحية والشهرزورية عليه، واستعدادهم للهجوم على دمشق، فتيقن يشموط عند ذلك من انعدام فرصة إرسال أية نجدة من الناصر لمساعدة صاحب ميفارقين في محنته⁽²⁴⁾.

ان الدور الخياني الذي لعبه بدر الدين لؤلؤ (الأرمني الأصل) صاحب الموصل وحقده على العرب بتسريبه للمغول مثل هذه المعلومات الخطيرة هو الذي مكّن المغول من احتلال ميفارقين، إذ لولا هذا الدور الخياني لكان المغول قد فكوا الحصار ورحلوا عن ميفارقين بموجب الاتفاق الذي كان قد عقده مع الملك الكامل.

(23) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص491 - 493، 495 - 496.

(24) المصدر نفسه، ج3، ق2، ص496 - 497.

ثالثاً: احتلال ميفارقين ومقاومة أهلها

بعد أن تبين للمغول صدق معلومات بدر الدين لؤلؤ، شرعوا في إحكام حصارهم لمدينة ميفارقين، فبدأوا أولاً ببناء سور حولها وإقامة الأبراج وحفروا حولها خندقاً عميقاً ونصبوا المجانيق⁽²⁵⁾، ووصلتهم نجدة كبيرة من جيش الأرمن يقودها حليفهم هيثيم ملك أرمينيا الذي لعب دوراً بارزاً في إحكام الحصار حول المدينة⁽²⁶⁾، كما وصلتهم إمدادات من صاحبي الموصل وماردين اللذين كانا قد دخلا في طاعتهم⁽²⁷⁾.

أحدثم القتال بين الطرفين، واعتمد الكامل - رغم تشديد المغول الحصار - خطة ذكية في إرباك العدو عن طريق شن غارات يومية مفاجئة وسريعة يقودها بنفسه، وكان للكامل فارسان شجاعان هما سيف الدين لوكيلي ومنير الحبشي اللذان انزلا الرعب والدهشة بقيادة وجند المغول، إذ كانت بسالتهما ومهارتهما في حسن استخدام السيف ودقة تصويب السهام سبباً في إنزال أفدح الخسائر بجند ومعدات العدو، أشاد مؤرخ المغول رشيد الدين بهما وبسكان المدينة، وأشار إلى أن جند المغول كانوا قد عزموا على

(25) ابن العبري: تاريخ الدول السرياني، ص135. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م1، ص431.

(26) الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص48.

Sanders, J. J., p. 113

Glubb, J: The Lost Centuries, London: 1967, p. 258.

(27) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص490. إقبال، عباس: تاريخ مفصل إيران، مؤسسة جاب انتشارات، طهران 1347 ش، ص192.

الهرب، بعد أن ينسوا من صد هجمات هؤلاء الأبطال لولا وصول أوامر مشددة من هولاءكو تقضي بأن يثبتوا في أماكنهم، وأرسل لهم قوة جديدة على رأسها ارتقتوا لمساعدتهم، وكانت لهذه التعزيزات أثرها في شد عزائم المغول الذين شنوا هجوما كبيرا بقيادة ايلكانوبان وارقتو، فتصدى لهم جيش الكامل، وهنا لعب الفارسان دورا كبيرا في المقاومة، إذ قتل عددا كبيرا من جند المغول وتمكنا

من إرباك ايلكا نوبان وإسقاطه من على صهوة جواده⁽²⁸⁾.

أمام هذا الأمر تيقن المغول بعدم جدوى الاستمرار بمثل هذه الهجمات فأمسكوا عن القتال بعد أن شددوا الحصار الاقتصادي على المدينة⁽²⁹⁾، ولجأوا إلى تدبير الحيلة للإيقاع بالكامل، فأشاروا على بدر الدين لؤلؤ بأن يرسل للكامل من يقول له (... أن بدر الدين لؤلؤ قد بذل روحه وماله وابتاع البلد من هولاءكو). فأجاب علم الدين الأعرس والي المدينة لرسول بدر الدين بقوله: (نحن نعرف محال أستاذك ما ينزل - يقصد الكامل - إلا مع حجارته فاننا قد بايعنا الله تعالى).⁽³⁰⁾ ونظرا لطول فترة الحصار التي استمرت أكثر من عام إنعدمت الأقوات والمؤن في المدينة حتى اضطر الناس إلى أكل الميتة والكلاب والقطط والفئران، وانتشر الوباء ووقع الفناء⁽³¹⁾.

(28) جامع التواريخ، م2، ج1، ص321 - 321.

(29) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص277. ميرخواند: روضة الصفاء، م5، ص259.

(30) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص501.

(31) رشيد الدين: جامع التواريخ، م2، ج1، ص321.

أمام هذا الحال اتفق الكامل مع أمرائه على إرسال أخيه الملك الأشرف موسى بن الملك مظفر شهاب الدين غازي إلى سونتاي لإقناعه بشأن فك الحصار عن ميافارقين مقابل إعطائه قلعة السناسنة. وافق سونتاي على هذا العرض الذي لم يكن الطرفان مخلصا النية لتنفيذه. وقد تبين ذلك في أثناء رؤية جماعة من المغول المرسلين لتسليم قلعة السناسنة مبعوث الملك الكامل وهو يشير خلسة لوالي القلعة بعدم تسليمها للمغول لتشككه بصدق نوايا سونتاي في تنفيذ تعهداته، الأمر الذي دفع المغول إلى قتل مبعوث الكامل⁽³²⁾.

وبعد فشل هذه العملية حدث أن وقعت مؤامرة على الملك الكامل من قبل مملوكين من ممالك أحد أمرائه بسبب خلاف شخصي حدث لهما مع غلمان الكامل الأمر الذي دفعهما إلى مكاتبة سونتاي يعرضان عليه تسليم ميافارقين مقابل توليتهما عليها، فوافقهما بعد أن استجابا لطلبه في مساعدة جنده على تسلق أسوار المدينة التي دخلوها في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة (657هـ / 1259م) بعد أن لاقوا مقاومة عنيفة من أهلها⁽³³⁾، فحدثت مذبحة عظيمة للمسلمين حتى قيل بأنه لم يبق من المسلمين في المدينة أكثر من مائة شخص⁽³⁴⁾، بينما جري الإبقاء على حياة المسيحيين الذين تعاطفوا خلسة مع المغول أثناء الهجوم⁽³⁵⁾. وبعد أن فرغوا من أمر أهلها

(32) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص502 - 503.

(33) المصدر نفسه، ج3، ق2، ص503 - 504.

(34) رشيد الدين: جامع التواريخ، م2، ج1، ص322. ابن العماد، أبو الفلاح عبدالحى الحنبلي: شذرات الذهب

في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ج5، ص95.

(35) رانسيمان: تاريخ الحروف والصليبية، ج3، ص524.

قاموا بتخريب أسوارها، ومن ثم رحلوا عنها إلى مدينة أمد فنزلوا عليها
وأخر سنة (657هـ/ 1259م)، فتسلموا صلحا دون أن يبدي الأمير سيف الدين
ذل ين مجلي - نائب الكامل فيها - أية مقاومة⁽³⁶⁾، كما أتموا استيلائهم على
قلعة اليمانية العائدة لميفارقين وأسروا فيها حريم الملك الكامل وأولاده
وأقاربه⁽³⁷⁾.

أما عن مصير الملك الكامل فلقد تم أسره أثناء احتلالهم ميفارقين مع
أخيه ومجموعة قليلة من مماليكه، فمثل بين يدي هولاء خلال أقامته في تل
باشر مع باقي الأسرى⁽³⁸⁾، وقد دارت محاوره ساخنة بين الاثنين، عدد فيها
هولاءكو أخطاء الكامل ومنها (سقيتك في همدان فما شربت، وأمرتك بهدم
سور أمد ما فعلت، وقلت لك خذ اخوتك وأموالك وعساكرك، والتقيتني على
بغداد حتى نقاتل الخليفة فأمتعت، واني عبرت على بيوتك فلم تخرج
الي ولا سيرت لي هدية، ولا أبصرت وجهي حتى لا تموت، فأجابه الملك
الكامل: (من أنت حتى أتحمّل المشقة في رؤية وجهك؟ أنت مالك قول ولا دين،
بل خارجي يجب عليّ قتالك، أنا خير منك). فقال هولاءكو: بأي شيء أنت خير
مني؟ فقال: لأنني أوّمن بالله وبرسوله، ولي دين وأمانة، ومع هذا فان الملك
بيد الله يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان لنا من عدن إلى تبريز، فذهب

(36) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص510، 526 - 527، 559. الذهبي، الحافظ شمس الدين:
العبر في خبر من غير، تحقيق: صلاح الدين منجد، مطبعة حكومة الكويت، 1966،
ج5، ص238.

(37) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص559 - 560. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م1، ص342 - 343.

(38) ابن شداد: الاعلاق، ج3، ق2، ص504. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص280.
رشيد الدين: جامع التواريخ، م2، ج1، ص322. ميرخواند: روضة الصفا، م5، ص259.

منا ذلك. وكذلك يفعل الله بك إذا أراد، يرسل عليك من يقتلك، ويسبي ذريتك، ولا يترك من عسكري أحدا. فقال له: كلامك اكبر منك، لأنك من السلاطين الصغار؟⁽³⁹⁾ فأمر هولاءكو عند ذاك بقتله وقطع رأسه وطيف به في بلاد الشام التي كانوا قد احتلوها وسط الأغاني وقرع الطبول بقصد تخويف الناس، ثم دفن في دمشق سنة 658هـ/ 1260م⁽⁴⁰⁾.

وقد رثاه أبو شامة بقصيدة مطلعها⁽⁴¹⁾:

ابن غازي غزا وجاهد في الله قوما اتخذوا في المشرقين
والعراقين ظاهرا غالبا وبهجمات شهيدا بعد صبر عليهم عامين
لم يثنه أن طيف برأس منه فله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة والحمل لقد حاز أجره مرتين
وهكذا دخلت ميفارقين في طاعة المغول بعد حصاد دام حوالي عامين.

(39) ابن شداد: الاطلاق، ج3، ق2، ص505 - 506.

(40) المصدر نفسه، ج3، ق2، ص506. الحوادث الجامعة والتجارب الناقعة في المائة الرابعة، المنسوب خطأ لابن الفوطي، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة الفرات، بغداد، 1331هـ، ص340.

(41) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن: الذيل على الروضتين. دار الجيل. بيروت، 1974، ص205.

Abstract

The Ayyubid Emirate of Miafarqeen

(Examples of the History of Islamic Jihad Against the Mongol Invasion)

Dr. Ala'a Mahmood Khleel^()*

This Emirate which lies in Diar Baker which is part of the cities of the Furat Island was established during the reign of Saladdin Al Ayyubi in 581 A.H / 1185 A.D. It was ruled by princes from the Ayyubi dynasty and it played an important role in the political events of the Islamic East. Mianfarqeen was targeted by the Mongols while invading the Arabic East. King Al Muthaffar who was its ruler accepted being subjugated to Mongols in 645 A.H./ 1247 A.D. in an attempt to protect this Emirate. Few months later, the king died, and his son king Al Kamel who declared his revolution against Mongols in 656 A.H./ 1258 A.D. succeeded his father in ruling the Emirate. He called for the unity of Muslims and giving support to the Abbasid caliph Al Mutasim whose carital Baghdad had been sieged by the Mongol army. King Al Kamel as well as the people of Miafarqeen resisted the Mongols severly, inflecting them heavy loss. Terefore, the Mongols were distturbed and their progress towards syria was stopped for one year. They could only occupy it after a one year siege and fighting.

(*) College of Arts / University of Mosul.